سامية: او الحب والوفاء

قصة مصرية تاريخية من عهد نابليون

من حسنات النيل على واديهِ الجزيرةُ المشهورةُ بطيبِ هوائها وحسن موقعها ورُوائها والمعروفة بجزيرة الروضة. وهي بين الجيزة ومدينة الفسطاط والنيل دائر عليها. كانت تُعرف قديماً بجزيرة مصر وجزيرة الحصن. وسميت بالروضة لانهُ لم يكن في الديار المصرية مثلها في جمالها ونضرتها. وكان فيها من القصور والقصور والبساتين ما لم يكن في غيرها. ومن المباني الشهيرة التي كانت فيها دارٌ لانشاء السفن الحربية بنيت سنة ٥٤ من الهجرة وعُرفت بدار الصناعة. والحصن الذي شادهُ احمد بن طولون سنة ٢٦٣ هـ ليكون معقلاً لاموالهِ وذخائرهِ. وسنة ٣٢٥ هـ نقل الاخشيد دار الصناعة الى ساحل الفسطاط وانشأ مكانها بستاناً جمع فيهِ انواع النبات النادرة والاثمار والازهار وسماهُ البستان المختار. ومن ابدع المباني التي كانت في هذه الجزيرة واغربها شكلاً الدار التي بناها الخليفة الآمر باحكام الله لزوجتهِ البدوية على شاطئ النيل وسميت بالهودج. وسنة ٦٣٨ هـ انشأ فيها الملك الصالح نجم الدين ايوب القلعة الشهيرة المعروفة بالقلعة الصالحية فهدم الدور والقصور والمساجد التي كانت بالجزيرة وادخلها في القلعة، وسوّرها بسورٍ عالٍ دُرّي اللون يأخذ بالابصار لشدة لمعانهِ وتألقهِ. وكان لهذه القلعة ستون برجاً سامية الذرى وكان فيها ايوان لجلوسهِ لم ترَ العين مثلهُ ولا يُقدَّرُ ما انفق عليهِ[1].

اخنى الدهر على هذه الجزيرة فاقفرت بعد ان كانت عامرة، ولم يبقَ فيها من المباني غير مقياس النيل وبعض القصور التي بناها المماليك البحرية ايام عزهم وسطوتهم، ومنها قصرٌ في الجانب الشرقي تجاه مدينة الفسطاط، كان يزهى في ذلك العصر بمظاهر الفخامة والبهاء، وتتجلى فيهِ آيات الجمال والاشراق، فامسى وقد عدت طيهِ يد الحدثان فابلت جدّتهُ وسلبت حسنهُ وبهجتهُ وآخر من سكنهُ من امرائهم الامير عبدالله كاشف الجرف الذي قُتل في واقعة أنبابة المعروفة بواقعة الاهرام التي انتصر فيها جيش الجنرال بونابرت على المماليك سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م). وبعد مقتل هذا الامير بقيت زوجهُ في ذلك

(١) الخطط للمقريزي جزء ٢ صفحة ١٧٧ من طبعة بولاق وحسن المحاضرة للسيوطي جزء ٢ صفحة ٢٠٢ طبع حجر بمصر

القصر ولها ابن يناهز العشرين اسمهُ ابرهيم وفتاة في الخامسة عشرة اسمها سامية . وكان ابرهيم رضي الاخلاق ذكي الفؤاد، وكانت سامية بارعة في الجمال آية في الادب والكمال ولم يكن لابرهيم انيس ولا جليس غير امهِ واختهِ. وقد الفوا العزلة بعد فقيدهم فلا يزورون احداً ولا يزورهم غير شاب عربي يُدعى الادب اسمهُ خالد وهو ابن الشيخ مروان من قبيلة نجم العُقيلي النازلة قرب اهرام الجيزة والمشهورة بقبيلة النجَمة

خرج ابراهيم ذات يوم وقصد ساحل الجزيرة ليسري عنهُ ما ساورهُ من الهموم والاشجان فلمح شخصاً قادماً من بعيد فتبينهُ فاذا هو صاحبهُ خالد فطاب نفساً بلقياه واتى بهِ الى القصر فحضرت امهُ وجعلوا يتحادثون في احوال البلاد فجاء ذكر الجنرال كليبر الذي تولى الحكم على مصر بعد سفر بونابرت الى فرنسا وكان يُعرَف بالسر عسكر كليبر . فامتدحهُ خالد لما اتصف بهِ من الكياسة وحسن السياسة ، فتذكر ابرهيم وقتئذٍ نكبة المماليك وما آل اليهِ امرهم بعد العزّ والجاه فتأثر وهملت عيناه ، فقالت لهُ امهُ : هوّن عليك يا بني فالايام دول، والملك بيد الله يؤتيهِ من يشاء ، وما ذلك الاّ جزاء ما فعلت ايدينا بهذه البلاد ، فلنصبّر على حكم القضاء ولما رأى خالد ما غشي ابراهيم من الكدر اراد ان يحوّل مجرى الحديث فسأل عن سامية وكانت تحتجب عنهُ ، امّا امها فكانت تجالسهُ لما تحلى بهِ الادب ومحاسن الاخلاق ، وما اتاه من الشجاعة والمروءة يوم اصيب زوجها في واقعة الاهرام . ذلك ان خالداً هذا كان من الشبان الذين جندهم المماليك لحرب الفرنسيس ومن رجال الفرقة التي كان الامير عبد الله قائدها وكان هذا الامير جسيماً مشهوراً بالشجاعة والفروسية والاقدام [1] فلما اشتبك الفريقان وحمي وطيس القتال حمل على صفوف الاعداء حتى كاد يمزقها فاصابتهُ رصاصة في صدرهِ وسقط عن جوادهِ فهجم عليهِ فارس من فرسان الفرنسيس ليجهز عليهِ فانبرى لهُ خالد وطعنهُ بخنجرهِ فارداه . وبعد المعركة عاد فوجد الامير في مصرعهِ ولما تأمله رآهُ يحرك جفنيهِ فعلم انهُ ما زال في قيد الحياة ، فاحتملهُ الى خيمة وضمّد جرحهُ ثم نقله الى قصرهِ بجزيرة الروضة ولم يكن هناك وقتئذٍ غير سامية وامها اما ابرهيم فكان قد خرج في ذلك اليوم ليترقب ما يكون من امر المعركة ، وكان يسير على غير هدى لما عراهُ من الهلع والذهول . وكان دوي المدافع كالرعد القاصف والدخان قد ملأ الفضاء حتى حجب وجه الشمس . ولما انتهى القتال رأى بعض المنهزمين يتحدثون بفوز الفرنسيس فسألهم عن الامير عبد الله كاشف

(١) الجبرتي جزء ٣ . صفحة ٦٧ من طبعة بولاق

المسيو جومار
عن صورة في متحف بولاق بالقاهرة
مقتطف يوليو ١٩٢٦
انظر الصفحة ٥٧

البرنس اوف ويلس

مقتطف ديسمبر ١٩٢٦

امام الصفحة ٣٩

فقالوا : قُتل في المعركة . فغرّ مغشيًّا عليه ، ولما افاق اراد السير الى مكان الواقعة فلم يجد الى ذلك سبيلاً لكثرة الهرج وانتشار الجنود في تلك الارجاء ، فعاد الى الروضة ، ولما وصل الى القصر وعلمت سامية بقدومه هرعت اليه وقالت لهُ : لا تجزع يا اخي فان ابانا لا يزال حيًّا . ولما رأى ابراهيم أباهُ وكان غائبًا عن الصواب اكبَّ عليه يقبلهُ وهو يبكي وينتحب . وفي منتصف الليل تنبَّه الامير قليلاً وقال لابنه بصوت ضعيف متهدج : كن رجلاً يا ابرهيم . ثم القى نظرةً على زوجته وابنته ولم يقوَ على النطق واغمض عينيه وقضى الامر

فارق الامير عبد الله الحياة وقد مضى على ذلك نحو السنتين ولم يفارق الحزن زوجتهُ ووالديه فقد اصابتهم مصيبتان فقد عميدهم وزوال ملكهم

***

مالت الشمسُ للمغيب ، فاشتملت بغلالة الشفق ، وجرت الى مستقرٍّ لها وراء الافق وكان بجانب الهرم الاكبر من اهرام الجيزة خيمة تتراءى من بعيد كأنها هرم صغير . وكانت الشمسُ وهي سائرة الى خدرها ترسل من نبال شعاعها ما غشّى جوانب الاهرام وكُثبان الصحراء بغشاء من نضار يبهر الابصار

خرج من هذه الخيمة رجل وسيمُ الطلعة طويل القامة ذو هيبة ووقار وجلس على هضبةٍ من الرمال مولياً وجههُ قبل المغرب ليشاهد الشمس وهي تتوارى بالحجاب . وكان هذا المنظر الرائع مما تبتهجُ لهُ نفسهُ وتقرُّ بهِ عينهُ فكان يرقبهُ كل يوم عند الاصيل في ذلك الفضاء حيث لا يحجب الافق شيءٌ عن البصر . وما برح شاخصاً الى السماء حتى غابت ذكاء ، وسدَّ الغسقُ اطنابهُ على تلك الارجاء ، فآوى الى خيمته كجاري عادته

كان هذا الرجل من كبار العلماء الذين صحبوا الجنرال برتابرت الى مصر للبحث عن آثار الزراعة واسمهُ المسيو جومار[1] وكان لا يعتمد على النقل والرواية ولا يدوّن شيئاً عن الآثار الاَّ بعد تحققهِ بالعيان شأن رفاقهِ العلماء الذين كانوا يجوسون خلال الديار للبحث والاستطلاع كل منهم فيما اختص بهِ من العلوم والفنون

وفيما كان في خيمتهِ واذا باعرابيين قادمين على جواديهما وهما الشيخ مروان وابنهُ خالد اللذان تقدم ذكرهما ، ولما صارا الى الخيمة نزلا عن جواديهما وحيَّاهُ أحسن تحية

(١) هو العالم الشهير ادمفرانسوى جومار Edme—François Jomard الذي رافق الحملة الفرنسية مع جماعة من العلماء وعين في عهد محمد علي باشا والي مصر رئيساً للبعثة المصرية الاولى في باريس ولد سنة ١٧٧٧ وتوفي سنة ١٨٦٢

وقال لهُ الشيخ مروان : انك يا مولاي ممن لهم علينا حق الجوار فوق ما لك عندنا من المنزلة والكرامة وقد جئنا لندعوك الليلة لحضور زفاف ابنتي ومن الاقوال المأثورة : ان من دُعي فليجب . فشكرها المسيو جومار ووعدها بالحضور ولما انصرفا قصد دار العرس في كفور العنّيات بجوار الكرم الاسود [1] مع ترجمانهِ مراد ابن السيد سليمان النجدي من كبار تجار الغورية . فلقي من الحفاوة والاكرام ما لم يرهُ من قبل فقال للشيخ مروان : لقد تحققت الليلة بالخبر ما سمعتهُ وقرأتهُ عن العرب وما اتصفوا بهِ من السماحة والكرم . وكان الشيخ مروان يبلغ السبعين حلو الفكاهة والمحاضرة . عالماً باخبار العرب وايامهم ، وكان المسيو جومار يسألهُ عن احوال البلاد وما توالى عليها من الحوادث والكوارث وهو يجيبهُ بافصح لسان واوفى بيان . وكان السيد سليمان النجديّ وابرهيم بن الامير عبد الله الكاشف من الحاضرين في الحفلة . وكان احد الرجال يغني في فناء الدار بصوت رخيم على نغمات المزمار ثم قامت فتاة حسناء سافرة الوجه ورقصت الرقص المعروف عند البدو « بالتحجيل » وحولها حلقة من الرجال جاثين على ركبهم وهم يصفقون لها على توقيع الالحان وقد ابدعت في الرقص مع توافق حركاتها لنغم الغناء وتصدية الاكف . فسرّ المسيو جومار وقد شجاهُ الغناء واطربهُ واعجبهُ رقص البدو لانهُ جمع بين المهارة والرشاقة والحشمة والادب . ولما كان مولعاً باستطلاع احوال العرب والوقوف على عاداتهم قال للشيخ مروان : الا يزال العرب للآن محتفظين بما كانوا عليهِ ايام جاهليتهم من العادات والاخلاق . فقال : ان العرب فريقان البدو والحضر والحضارة غاية البدوي فهو يسعى اليها ولا يتشوّف الى احوال البادية الاّ لضرورة تدعوهُ اليها . ومتى تيسّرت لهُ اسباب الحضارة اقام في المدن واقتبس عادات اهلها . ولكن مهما بلغ العرب في الاخذ باسباب الحضارة فلا يزالون كما كان عليهِ اباؤهم في الجاهلية من الشيم والاباء والمروّة والوفاء فهذه سجايا توارثها الخلف عن السلف ولم يغيرها الزمان والمكان . بعد ذلك دار الحديث على الاثار المصرية فسأل الشيخ مروان المسيو جومار عن الغاية من بناء الاهرام التي حارت فيها الافكار وكثرت الظنون والآراء ، فقال : ان الاهرام انما هي قبور لملوك الفراعنة فكان المصريون يقولون بالخلود ، وكانوا يحرصون على بقاء الاجساد ، وبعد تحنيطها كانوا يودعونها تلك المباني الهائلة او القبور المنحوتة في الصخر لوقايتها من الآفات وسطوة اللصوص

(١) سمي فيما بعد بالكوم الاخضر وهو من كفور العنيات التي منها الآن نزلة انبطران ونزلة السمان

وهذه الاهرام من اعجب عجائب الدنيا وأقدمها عهداً وهي اكبر شاهد على ما بلغهُ قدماء المصريين في فن البناء من الابداع والاتقان وما كان لملوكهم من العظمة وعلو الشأن

فقال لهُ السيد سليمان النجدي هل لك ان تخبرنا كيف بنيت هذه الجبال الشاهقة . ورأى المسيو جومار ان الوقت يضيق عن الشرح والبيان فقال لهُ : اذا شرفتني واخواتك في المجمع العلمي يوم السبت المقبل (١٤ يوليه)[١] وهو اليوم الذي سيجتمع فيهِ العلماء للبحث ومراجعة الاعمال شرحت لكم ما اردتم شرحاً وافياً واطلعتكم على رسم الاهرام وغيرها من المدافن والمعابد التي شاهدتها في الوجهين القبلي والبحري فقد رسمتها رسماً دقيقاً مفصلاً ودوّنت كل ما تيسر لي من المعلومات عن هذه الآثار بحسب ما وصل اليهِ العلم في هذا العصر[٢] غير ان العقبة التي تحول دون الوقوف على الكثير من اخبار المصريين ومعارفهم انما هي قراءة الكتابة المسطرة على آثارهم فلم يتأت بعد للعلماء فك رموزها . ومما يبشر بقرب حل هذه المعضلة ذلك الكنز الثمين الذي عثر عليهِ جنودنا من عهد قريب بقرب رشيد وهو حجر من الصوان الاسود عليهِ كتابة بالحروف المصرية واليونانية وقد ارسلنا رسمهُ الى علماء الآثار في اوربا لمعاونتنا في البحث والدرس لعلنا نهتدي الى ضالتنا المنشودة من كشف القناع عن هذه الطلاسم والرموز[٣]

***

في اليوم المعهود ذهب الشيخ مروان مع ابنهِ خالد والسيد سليمان الى المجمع العلمي وهو المعهد الذي انشأهُ بونابرت في مصر في سنة ١٧٩٨ لنشر العلوم والفنون على نسق المجمع العلمي في باريس ، وخصص لهُ دار حسن كاشف جركس[٤] فرحّب بهم المسيو جومار وعرّفهم بالمسيو مونج الرئيس . وطاف بهم في قاعات المجمع واطلعهم على ما تحتويهِ من

---

(١) اليوم الذي قتل فيه كليبر

(٢) نشرت ابحاث المسيو جومار عن الآثار المصرية في المؤلف الكبير المسمى Description de l'Egypte « وصف مصر » الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية وطبع في باريس

(٣) كان للعلامة فرانسوى شامبوليون فضل السبق في حل رموز الخط الهيروغليفي بالنظر في اسماء الاعلام المسطرة بهذا الخط على حجر رشيد (وهي محاطة بدوائر اهليلجية) ومقابلة حروفها بالحروف المركبة منها هذه الاسماء في الكتابة اليونانية وقد عرض نتيجة ابحاثه على مجمع العلماء بباريس في سنة ١٨٢٢ اي بعد اكتشاف حجر رشيد بمدة ٢٣ سنة

(٤) كانت هذه الدار بالناصرية مكان المدرسة السنية الآن . ولا يزال هذا المعهد قائماً في مصر ومكانه الحالي في الجانب الشمالي الغربي من حديقة وزارة الاشغال وكان اسمه « مجمع المعارف » فسمي من عهد قريب « المجمع العلمي المصري »

تحف وآثار ورسوم وادوات عملية وكتب قيمة افرنجية وعربية . وانهم لكذلك واذا بضجة في القاعة التي كان العلماء مجتمعين بها فسألوا الخبر فقيل لهم : ان الجنرال كليبر قُتل وخرج الجميع قاصدين دار الجنرال ببركة الازبكية . امّا الشيخ مروان وابنهُ والسيد سليمان فانهم لما رأوا الجنود منبثين في الطرق وهم في هياج واحتدام ويريدون الفتك باهل البلد رجعوا ادراجهم ، ولما كان المساء خرجوا خائفين يترقبون

وقد ذاع الخبر وانتشر في انحاء البلاد ووقع الرعب في القلوب ولم يزل جنود الفرنسيس في هياج حتى علموا ان القاتل شاب اسمهُ سليمان الحلبي وقد حضر من غزّة للفتك بكليبر بايعاز من احد اغوات الانكشارية . وكان كليبر في ذلك اليوم عند الجنرال داماس احد أركان حربهِ ثم خرج يتمشى مع بروتين كبير المهندسين ولم يكن هناك وقتئذٍ احدٌ من الحرس فانتهز سليمان هذه الفرصة و بادر اليهِ ولما دنا منهُ اوهمهُ بانهُ لهُ حاجةٌ يريد قضاءها وطعنهُ بخنجر اربع طعنات فهجم عليهِ بروتين وضربهُ بعصا على رأسهِ فنال منهُ ما نالهُ كليبر (١)

ولما علم ابراهيم ابن الامير عبد الله الكاشف ان كليبر قتل باغراء احد المماليك راعهُ الامر ولزم فراشهُ بقية ذلك اليوم فزاره السيد سليمان وكان من اصدقاء ابيهِ فرآه كاسف البال فسألهُ ما خطبك يابنيَّ : قال : اما علمت ياوالدي ان الجنرال مينو الذي تولى الحكم على مصر بعد كليبر قد امر بنفي جميع ابناء المماليك ونسائهم من هذه الديار وهذا ما اخشى منهُ على امي واختي لا على نفسي . فقال له السيد سليمان : اذا حدث ما يريبك فاتني ابذل ما في وسعي لتدارك الامر ، فكن واثقًا بالله ولا تيئس من رحمتهِ

لبث ابرهيم بقصره اياماً وهو مروَّع القلب وامهُ تواسيهِ وتسليهِ وهي لا تبوح بما بها من البرحاء شفقةً عليهِ . وكانت سامية اذا غلبتها عوامل الشجن تخلو بنفسها وتبكي . وبعد ايام قلائل حضر شيخ الخُط واخبر ابرهيم بان الحكومة امرت بابعاد اولاد المماليك ونسائهم الى اقصى الصعيد . فذهب من ساعتهِ الى السيد سليمان وقال له : قد حمَّ القضاء وكان ما خفت ان يكون فهل لك ان تدبر امري ، فقام السيد سليمان وقصد المسيو جومار مع ابنهِ مراد وشرح لهُ الحالة واستعطفاه فتأثر ووعدهما خيراً . وبعد ايام حضر مراد واخبر اباه بان الجنرال مينو اذن لابراهيم ان يبقى في القاهرة مع امهِ واختهِ حبيب غزالة

(التتمة في الجزء التالي)

(١) الجبرتي جزء ٣ صفحة ١١٦ من طبعة بولاق

مصرع الجنرال كليبر
عن صورة قديمة في متحف بونابرت بالقاهرة
مقتطف يوليو ١٩٢٦
امام الصفحة ٦٠